قال الشيخ، الإمام، العالم، الفاضل، العلامة، نجم الدين سليمان بن عبد القوي الطوسي -تغمده اللّه برحمته-:

«اللّهم يا واجب الوجود، ويا موجد كل موجود، ويا مفيض الخير والجود على كل قاصٍ من خلقه ودان، ويا ذا القدرة القديمة الباهرة، والقوة العظيمة القاهرة، ويا سلطان الدنيا والآخرة، وجامع الإنس والجان، تنزهت في حكمتك عن لحوق الندم، وتفردت في إلهيتك بخواص القدم، وتعاليت في أزليتك عن سوابق العدم، وتقدست عن لواحق الإمكان، أحمدك على ما أسلت من وابل الآلاء، وأزلت من وبيل اللأوى، وأسبلت من جميع العطاء، وأزللت من كثير الإحسان، حمد من آمن بك وأسلم، وفوض إليك أمره وسلم، وانقاد لأوامرك واستسلم، وخضع لعزك القاهر ودان.

وأسألك أن تصلّ على سيدنا أصفيائك، وخاتم أنبياءك، وفاتح أوليائك محمد سيد المعد بن عدنان، وأن ترزقني العلم وأن توفقني للعمل، وتبلغني منهما نهاية السؤل وغاية الأمل، وتفسح لي في المد، وتنسأ لي في الأجل في حسن دين وإصلاح شأن، وأن تحيني حياةً طيبةً هنيئة، وتقيني في الدين والبدن أعراض السوء الرديئة، وتعدل بي عن السبل الوبيئة إلى المريئة، وتعصمني من حبائل الشيطان، وتقبضني على الكتاب والسنة، وتجعل رحمتك لي من النار جُنة، وتدخلني بفضلك وجودك الجنة، ومنك يا منان وتلحقني بالنبي الأفضل والرسول الأكمل المكمل الذي ختم بالنبوة وأكمل ومن تبعه بإحسان.

وأسألك التسديد في تأليف كتاب في الأصول حجمه يقصر وعلمه يطول، يتضمن ما في الروضة القدامية الصادرة عن الصناعة المقدسية، غير خالٍ من فوائد زوائل، وشوارد فرائض في المتن والدليل والخلاف والتعليل، مع تقريب الإفهام على الأفهام، وإزالة اللبس عنه مع الإبهام، حاوياً لأكثر من علمه في دون شقر حجمه، مقر له غالباً على ما هو عليه من الترتيب، وإن كان ليس إلى قلبي بحبيبٍ ولا قريب، سائلاً من الله تعالى وفور النصيب من جميل الأجر

وجزيل الثواب، ودعاء مستجاب، وثناء مستطاب. اللّٰهم فهب لنا من لدنك رحمةً إنك أنت الوهاب».

قال الشارح وفقه اللّه:

هذه مقدمة الطوفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ التي افتتح بها مختصره لروضة ابن قدامة، وقد احتوت على التضرع والثناء على الله وسؤاله التوفيق والإخلاص، وإظهاره لقصده من تأليف هذا المتن واختصاره لروضة ابن قدامة.

قال: «اللّٰهم يا واجب الوجود، ويا موجد كل موجود، ويا مفيض الخير والجود على كل قاصٍ من خلقه ودان».

هذه الجملة ونظائرها تسمى بالمربعة النونية، وطريقتها أن تكون الفقرة مشتملة على جمل أربع، الثلاثة الأولى منها بفاصلة واحدة، والرابعة مختلفة، انتهى بالدال، كما في قوله: «اللّٰهم يا واجب الوجود ويا موجد كل موجود ويا مفيض الخير والجود»، ثم قال في الرابعة: «على كل قاص من خلقه ودان»، فانتهت بالنون.

ولما جاء للمربعة الثانية غاير الفاصلة، لكنه ختم الرابعة بالنون، في قوله: «ويا ذا القدرة القديمة الباهرة، والقوة العظيمة القاهرة، ويا سلطان الدنيا والآخرة، وجامع الإنس والجان»، فالمربع جملة أو فقرة من أربع جمل تكون الرابعة منها موحدة في كل فقرة تنتهي بالنون، لكن الثلاثة الأولى تكون متجانسة ولا تلتزم فيها حرفاً واحداً، هذه تسمى مربعة، وهي طريقة بلاغية لطيفة تُقال نظماً وتُقال نثراً، يعني: تُنشأ في الشعر وتُقال في النثر.

ونظير ذلك التربيع في مثل قوله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:١٤]، هذه الطريقة أراد بها رَحِمَهُ ٱللَّهُ إظهار شيء من البراعة والمتانة في اللغة.

استفتح المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ الكتاب على غير العادة فلم يحمد الله ولم يثنِ عليه، إنما استفتح بصيغة قد يُفهم منها إرادة الدعاء، لكنه استفتح بمناداة الله؛ ليوجه الحمد له سبحانه، فعدَلَ عن الطريقة المألوفة فلم يقل الحمد، بل قال: «اللّٰهم»، وأثنى على الله، وعدَّد بعضاً من صفاته العلية، ثم قال: «أحمدك»، وانتقل إلى ذكر الحمد؛ فهو لم يفتتح بدعاء إنما بحمدٍ، لكن بطريقة فريدةٍ ليست معهودة.

قوله: «اللّٰهم يا واجب الوجود»، وصفُ الله عَزَّوَجَلَّ بواجب الوجود[1] وصفٌ لم يرد في الكتاب والسنة ولا في كلام السلف؛ فهي عبارة أحدثها الفلاسفة وانتقلت إلى المسلمين عبر ترجمة علم الكلام[2]، وصارت من جملة الأوصاف التي لا يُعهد مثلها على لسان السلف الصالح نسبةً إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ويُستغني عن ذلك بما ورد في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ﴾[الحديد:٣]، وبما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم: «أنت الأول فليس قبلك شيء»[3]، فما ثبت في اللسان العربي وفي النص الشرعي من وصف الله عَزَّوَجَلَّ، فالأولى العمل به، ونحن في غنية أن نستعيض عن النص الشرعي بعبارة فلسفية أو كلامية لسببين:

أولاً: أنها لن ترقى -مهما بلغت- إلى جمال عبارة وحلاوة اللفظ القرآني، ولن تبلغ في عمقها ودلالتها على ما جاء به النص الشرعي.

ثانياً: أن العبارات الفلسفية لا تخلو في الغالب من محاذير وإشكالات؛ إما للقواعد التي بُنيت عليها، أو لما يستلزم إثباتها من محذور لا يُقر مثله، وفي أحسن الأحوال أن تكون

---

(١) هذا المصطلح أطلقه المتكلمون والفلاسفة ويُريدون به القديم الذي لم يسبقه عدم.

(٢) قال العلامة بكر أبو زيد –رحمه الله- في معجم المناهي اللفظية (ص: ٥٣٢): "واجب الوجود: في إطلاقه على الله تعالى إجمال مانع من فهم المراد، وبيانه مفصلاً لدى شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – في مواضع من كتبه".

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد- باب قول الله تعالى: {لما خلقت بيدي} (٧٤١٣)، ومسلم في كتاب صفه القيامة والجنة والنار (٢٧٨٨).

العبارات الفلسفية مُوهمةً مُحتملة، وما كان يتعلق بذات الباري سبحانه وتعالى، فالأولى فيه الالتزام بما ورد في النصوص الشرعية من الكتاب والسنة، فهذا أسلم وأولى وأفضل وأكمل، فلا حاجة إذاً إلى العدول عن ذلك.

ثم قال -رحمه الله-: «ويا موجد كل موجود، ويا مفيض الخير والجود»، يعني: مسبغ النعم والفضل والكرم على خلقه.

«على كل قاصٍ من خلقه ودانِ»، القاصي: البعيد، والداني: القريب؛ والوصف بالقريب والبعيد متجه إلى الخلق؛ فإفاضة الخير والجود من الله سبحانه وتعالى تشمل القريب منه بطاعته سبحانه، والبعيد عنه بمعصيته.

فنعمة الله تبلغ الكافر فضلاً عن العاصي والفاسق والفاجر، فإنها تبلغه، وخير الله ونعمة الله تبلغ عباده بغض النظر عن قربهم من ربهم بالإيمان والإحسان والطاعة، أو بعدهم عنه بالكفر والفسوق والعصيان، وهو معنىً لطيف فيه إشارة إلى عظيم فضل الله على خلقه.

وظاهر العبارة قد يُفهم منها القرب والبعد المكاني، وهذا غير وارد؛ فالبعد والقرب المكاني أمر نسبي، يقول الطوفي -رحمه الله- : «وهو -أي البعد والقرب المكاني- إنما يصح بالنسبة إلى أجزاء العالم من شخص ومكان صحةً إضافية، مثلاً: من في الشام أقرب إلى من بمصر ممن ببغداد وبلاد المشرق وبالعكس، من بالشام أقرب إلى من ببغداد ممن بمصر وبلاد المغرب، وإنما قلنا هذا لأن الله سبحانه هو أقرب إلى كل أحد من حبل الوريد.

فلا يُقال: إن بعض الأشياء أقرب إليه من بعض، والله سبحانه وتعالى على خلاف المشاهدات في القرب والبعد والظهور والبطون، فهو ظاهر في اختفائه، باطن في ظهوره، قريب في بعده، بعيد في قربه، ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[الحديد:٣].

وأيضاً كما لا يُقال إن بعض المخلوقات أهون عليه من بعض، لا يُقال: بعضها أقرب إليه من بعض، خصوصاً على قول من ينفي الجهة، أو يقول: إنه بذاته في كل مكان، فلا يتصور الأقرب والأبعد بالنسبة إليه سبحانه وتعالى، أما من يثبت الجهة فقد يُمكن توجيه ذلك على قوله».

قلت: وهذا لا يصح حتى ممن يثبت الجهة على قول السلف، فليست الجهة المحسوسة إنما الجهة المطلقة.

ثم يقول -رحمه الله-: «ويجوز تخريج الكلام على القرب والبعد بالطاعة والمعصية، فيكون معناه مفيض الخير على كل قريب إليك أي: إلى رحمتك بالطاعة، وكل بعيد عنك بالمعصية، ومن المعلوم أن الله سبحانه وتعالى أسبغ إنعامه على المطيع والعاصي والمؤمن والكافر، والبر والفاجر».

ثم تابع -رحمه الله- الثناء على ربه فقال: «ويا ذا القدرة القديمة الباهرة، والقوة العظيمة القاهرة، ويا سلطان الدنيا والآخرة، وجامع الإنس والجان»، فلا يزال يدعو ربه منادياً له بهذه الأوصاف.

قوله: «القدرة القديمة»، وصف القديم عند المتكلمين الذي لا مبدأ له في الزمان ولم يسبقه عدم، ونسبة ذلك إلى الصفات، أيضاً مما يُستحسن النأي عنه واستبداله بما ثبت في الكتاب والسنة، فوصف الله بالقوة ثابت في الكتاب والسنة بأسماء وأوصاف، لكننا لا نحتاج إلى تقييدها بالقديمة؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ وصف نفسه دون تقييد ذلك بمثل هذا[1].

ثم تابع رَحِمَهُ ٱللَّهُ الثناء على ربه بإثبات القدرة والقوة والسلطة في الدنيا والآخرة، وبجمعه الإنس والجن، فقال -رحمه الله-: «تنزهت في حكمتك عن لحوق الندم، وتفردت في إلهيتك

(١) أي: تقييد القدرة بـ "القديمة".

بخواص القدم»، والكلام على القِدم هو نفس الكلام على القدرة القديمة، وهو كما قلت: عبارة مُحدثة أو وصف دخيل على اللسان الشرعي.

«وتعاليت في أزليتك عن سوابق العدم»، يُريد -رحمه الله- أن يُقرر معنى الأولية الذي ثبت في الكتاب بقوله تعالى: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ﴾[الحديد:٣] وثبت في السنة، بقوله صلى الله عليه وسلم: «أنت الأول فليس قبلك شيء»(١)، فنحن نستعيض عن ذلك بما ورد في الكتاب والسنة من نصوص شرعية ثابتة، أدق في دلالتها على مراد الله سبحانه وتعالى.

قال: «وتقدست عن لواحق الإمكان»، كل ذلك تقدير لعبارات فلسفية، أن الله كما لم يسبقه عدم لم يجز في حقه سبحانه وتعالى أن يلحق به ممكن، وهذا عندهم أيضاً دخيل وفيه شيء من فساد المستلزمات.

يقولون: الذات قديمة وهي لا يمكن أن توصف بحادث، وإلا استلزم حدوث الذات وهذا فاسد، ومن هنا دخلوا مدخلاً فاسداً، فنفوا منه الصفات الحادثة، أو الصفات الاختيارية، أو الفعلية كما يُسميها أهل العلم، فنفى المعتزلةُ الصفات جملةً(٢)، ونفى الأشاعرةُ ما جاوز صفات الذات، فأثبتوا سبع صفات، وهي: العلم، والقدرة، والحياة، والكلام، والسمع، والبصر، والإرادة(٣)، ثم نفوا ما وراءها من الصفات، بزعم أن الصفات الفعلية الاختيارية ليست دائمةً، فنفوا عن الله سبحانه وتعالى الضحك والغضب والرضا نزوله سبحانه إلى السماء الدنيا، وغير ذلك مما ثبت في النصوص، يقولون: هذه صفات حادثة، يعني: كانت بعد أن لم تكن، فربنا نزل وقبل النزول لم يكن نازلاً، فيقولون: هذه صفة حادثة، والقاعدة الفاسدة عندهم تقرر أن القدِم لا يتصف بحادث، فنفوا الصفات من هذا الباب.

---

(١) تقدم تخريجه قريبًا.

(٢) ينظر: الفرق بين الفرق للبغدادي (ص: ٣٢٢)، الملل والنحل للشهرستاني (١/ ٨٦).

(٣) ينظر: الفرق بين الفرق للبغدادي (ص: ٣٢٢)، الإنصاف للباقلاني، (ص: ٣٨)، وأيضًا (ص: ٦١).

قلت: وطالما استلزم مثل هذا التقرير الكلامي المنطقي الفلسفي لوازم فاسدة على الشريعة، فإنه يُستغنى عنه، ونحن في غنى بما ثبت في الكتاب والسنة من النصوص والعبارات والأوصاف التي وصفت الله سبحانه وتعالى بأجل الأوصاف وأعظمها وأبلغها.

قال -رحمه الله تعالى-: «أحمدك على ما أسلت من وابل الآلاء»، أسلت فعل ماضٍ يعني: أجريت إجراءً متتابعاً من الإسالة والسيلان، فوصَفَ نعم الله بالوابلة، والوابل يُوصف به المطر الغزير المتتابع، وهو وصفٌ مجازي جميلٌ لآلاء الله ونعمه التي عمَّت كل الخلائق.

قال: «وأزلت من وبيل اللأواء»، الوبيل الوخيم، واللأواء: الشدة والصعوبة في العيش، فالله عَزَّوَجَلَّ أسبغ النعم ودفع النقم -جل جلاله-.

قال: «وأسبلت من جميل الغطاء»، يعني: الستر الجميل من الرب سبحانه على خلقه.

قال: «وأزللت من كفيل الإحسان»، أصله من الزلل، وهو الميل، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾[البقرة:٣٦] أي: أمالهما، ويقصدُ أن الله أمال إلى خلقه الإحسان، وكفيل الإحسان يقصد به هاهنا شامِلُهُ وعامُهُ، ويجوز أن يكون المقصود الضمان، فيكون المعنى أن إحسان الله سبحانه وتعالى قد كفل وضمن ووصل إلى جميع الخلق، فهو سبحانه وتعالى كفيل بقضاء حوائجهم وما يغطي مصالحهم في المعاد العاجل والآجل.

قال: «حمد من آمن بك وأسلم»، هذا مصدر لقوله فيما سبق: «أحمدك» يعني: أحمدك يا رب حمد من آمن بك وأسلم، فتبين إذاً أن تقدمته في الفقرات السابقة بالنداء لله لم يكن دعاءً إنما هو حمد صدَّره بالنداء لله والثناء عليه، «حمد من آمن بك وأسلم، وفوّض إليك أمره وسلّم، وانقاد لأوامرك واستسلم، وخضع لعزك القاهر ودان».

قال: «وأسألك أن تصلّي على سيد أصفيائك وخاتم أنبيائك وفاتح أوليائك محمد سيد معد بن عدنان»، صلوات الله وسلامه عليه، والمصنف رحمه الله بعد ما أثنى على ربه وحمده

وأثنى عليه بما هو أهلٌ له من الصفات، ثنَّى ذلك بالصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم طالباً فيه من ربه أن يبلغه هذه الصلاة وهذا السلام.

وقد وصف المصنف رحمه الله النبي عليه الصلاة والسلام بأنه سيد أصفائه؛ لأن الله اصطفى من خلقه ما شاء، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾[القصص:٦٨]، وفضّل بعض أنبيائه على بعض، وفيمن فضّل الله سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وقد دلت على ذلك جملة من النصوص الشرعية التي تبلغ بمجموعها حد التواتر المعنوي، بأن الله فضّله واختاره ورفع منزلته، وبلغ به مرتبةً ما بلغها قبله ملكٌ مقرب ولا نبي مرسل، وإن كان جملة الأنبياء فاضلين -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- لكن الله فضّل من شاء منهم، وقد جاءت النصوص بتفضيل بعض الأنبياء بمناقب؛ فإبراهيم عليه السلام قد فضله الله باتخاذه له خليلاً[١]، وموسى عليه السلام مفضل بتكليم الله له[٢]، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم قد تجاوز هاتين المرتبتين، ودليل ذلك أمران:

الأول: إمامته عليه الصلاة والسلام بهم ليلة الإسراء في المسجد الأقصى.

والثاني: تخصيصه صلى الله عليه وسلم بالشفاعة العظمى التي لا يكون لها إلا عبدٌ واحدٌ، قال نبينا عليه الصلاة والسلام: «أنا لها»[٣]، وكذا تفضيله بمنزلة في الجنة لا تكون إلا له، وهي الوسيلة، قال صلى الله عليه وسلم: «إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ اللهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ»[٤].

---

(١) لقول الله تعالى: {وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا} [النساء: ١٢٥].

(٢) لقول الله تعالى: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} [النساء: ١٦٤].

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان- باب أدنى أهل الجنة منزلة (١٩٣).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة- باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه (٣٨٤).

قال: «وخاتم أنبيائك»، وقد خُتمت به النبوة كما هو معلوم[١].

قال: «وفاتح أوليائك»، يقصد أن مرتبة الولاية التي يختص الله بها من يشاء من خلقه فُتحت بنبينا عليه الصلاة والسلام، وجمَعَ المصنف هاهنا وصفين متقابلين: ختم النبوة برسولنا عليه الصلاة والسلام، وافتتاح الولاية به عليه الصلاة والسلام، ويصح ذلك إذا كان يقصد الأولياء من أمته عليه الصلاة والسلام فإنه مقدمهم وإمامهم وفاتحهم.

(١) لقوله صلى الله عليه وسلم: «فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ أُعْطِيتُ.. – ثم ذكر منها– وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ». أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير– باب قول النبي ﷺ: «نُصِرْتُ ... » (٢٩٧٧)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٣)، واللفظ له.